

شعر عنتره بين المركز والهامش

طالب الدكتوراه: شريفي محمد لمين

ت.إ. الدكتوراه أحلام بن الشيخ

مخبر النقد ومصطلحاته

جامعة قاصدي مرباح ورقلة / الجزائر

aminecharif29@gmail.com

Received: 11, 2020

Revised: 01, 2021

Accepted: 04, 2021

الملخص :

عرف المجتمع العربي قبل الإسلام كغيره من المجتمعات نظاما مركزيا يعتمد القبيلة كنواة أساسية لبناء المجتمع و سن القوانين والنظم لتسيير شؤون الحياة الاجتماعية والاقتصادية في السلم والحرب ، وكل من لم يسر في فلك هذه التنظيمات – ولو كانت جائزة- أو عارض أو انتقد السلطة المركزية كان نصيبه التهميش على كل الأصعدة ، والتهميش ظاهرة إنسانية لم يخلو منها زمان ولا مكان ، لأن هذه سنة الحياة فالمسيطر دائما شعاره " لا أريكم إلا ما أرى "، وفي هذا البحث سنحاول تتبع أسباب تهميش الشاعر عنتره بن شداد العبسي من طرف قومه كما فصلها في ثنايا شعره ، حيث نستخلص أسباب استهجان واستبعاد ، المتمثلة في سواد بشرته وعبوديته ثم نسبه المجهول في أول حياته و تجاسره على حب ابنة عمه والتغزل بها في أغلب قصائده وقد أسهب في ذكر هذه العوامل المؤثرة في نفسه وشخصيته وأسهب كذلك في الدفاع عن نفسه وفرض مكانته التي يستحقها .

Abstract: The Arab society before Islam, like other societies, knew a central system that adopts the tribe as a basic nucleus for building society and enacting laws and systems to manage the affairs of social and economic life in peace and war, and anyone who did not facilitate the astronomy of these organizations - even if they were unfair - or opposed or criticized the central authority was marginalized at all levels, and marginalization is a human phenomenon that has not been without time and place, because this year of life is always dominated by its slogan "I do not show you except what I see", and in this research we will try It follows the reasons for the marginalization of the poet Antara bin Shaddad al-Absi by his people as he separated it in the folds of his poetry, where we draw the reasons for his disdain and exclusion, represented by the blackness of his skin and slavery, and then his unknown lineage at the beginning of his life and his dare to love his cousin and flirt with her in most of his poems and he dwelled in mentioning these factors affecting himself and his personality and also dwelled in defending himself and imposing his place he deserves.

المقدمة :

لكل أمة من الأمم أعراف يضعونها لتنظيم شؤون حياتهم وفق معتقداتهم، ووفق نمط حياتهم الاجتماعية ثم البيئة التي يعيشون فيها والجهة الوصية على التقيد بهذه الأعراف وتنفيذها هي المركز المسيطر وكل ما شذ عن ذلك فهو مهمش منبوذ عندهم ، العرب في الجاهلية أمة امتازت بنظام قبلي عام يعتمد على ركيزة أساسية هي القبيلة التي مثلت النواة الأولى لنشأة المجتمع القبلي وهو يتشابه عند كل القبائل ويتفاوت اختلافاً عند بعضهم ، تتكون القبيلة من الناحية الاجتماعية إلى ثلاث طبقات مثلت الطبقة الأولى الصرحاء أو الأصلاء وهم الذين ينتمون لجد واحد فمنهم يكون السيد وراثته أو بالانتخاب وهم عماد القبيلة وأساسها وتناط بهم مسؤولية حمايتها وهناك من يقوم على خدمتهم من أبناء الطبقات الأخرى أما الطبقة الثانية من طبقات القبيلة فهي طبقة العبيد والموالي وافرادها هم من الرقيق عربا كانوا أو غير عرب ، فأما العرب فهم الذين كانوا يجلبون من البلاد المجاورة أو القبائل المجاورة إذ كانت الحروب دائمة بينهم لذلك كان السبي يطال الرجال والنساء على حد سواء فكانوا عبيداً للقبيلة الأسرة لهم .

وأما الرقيق من غير العرب فقد كان مصدره البلاد المجاورة للجزيرة العربية كالحبشة وغيرها من الأمم الأخرى. أو يكونوا م من وقعوا أسرى لدى القبيلة ولم يتمكنوا من فك رقابهم فظلوا عبيداً فيها وتعد طبقة الحلفاء الطبقة الثالثة من طبقات القبيلة ، والحلفاء هم الأحرار الذين التجأوا للقبيلة من قبائل عدة لأسباب مختلفة فقد يكونوا من الخلعاء أو من الضعفاء الذين يبيعون الحماية أو ممن يطلبون المعيشة في حامي القبيلة الحالية وهنا تتولد رابطة حلف بينهم وبين القبيلة التي لجأوا إليها. (الخطيب، 2018)

وقد كان للشاعر في القبيلة مكانة عظيمة وخاصة إذا كان فارساً مشهوراً، لكن كيف كان الحال مع عنتر بن شداد في قومه وهو الشاعر المجيد والفارس الصنديد ؟ وهو أسود من طبقة العبيد فكيف تجلى ذلك في شعره؟ هل كان من عليّة القوم وسراتهم ، أم كان وضعياً مهمشاً ؟

- الهدف من هذه الدراسة تبين الأسباب التي جعلت حياة عنتر متأرجحة بين المركزية والتهميش في صراع نفسي سببه عقدة النقص عنده من اللون والعبودية .

- وتكمن أهمية الدراسة من خلال مجموعة من الاسقاطات باستخدام المنهج النفسي للأدب للوقوف على ظاهرة التهميش التي لم يخلو منها عصر من العصور، ولم تقتصر على أمة دون أخرى .

تنقسم هذه الدراسة إلى مبحثين نظري وتطبيقي.

1- المبحث الأول :

هو الإطار المفاهيمي : نعرف من خلاله بعض المفاهيم والمصطلحات التي يركز عليها البحث

- مفهوم الهامش :

لغة : الهمش الجمع ، ونوع من الحلب والعض وهمش كضرب : أكثر الكلام وامراً هامش كجمزى كثيرة الجلبة والهامش حاشية الكتاب ... (الفيروزبادي، الصفحات ج2-335)، فهي ليست شديدة الصلة بمعنى التهميش الذي نريده ، وإنما المراد المعنى الموضوع بالترجمة كمعادل للكلمة الأجنبية (marginal)، والهامش أنواع : ففيه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ..

- مفهوم المركز :

لغة: من الجذر ركز يأتي بمعاني: ركز الرمح يركزه ويركزه غرزه في الأرض كركزه والمركز : وسط الدائرة ، وموضع الرجل ومحلّه وحيث أمر الجند أن يلزموه (الفيروزبادي، الصفحات 198-199)

اصطلاحاً : مأخوذ من التعريف اللغوي لما له به من صلة، إذ يمثل الجهة المتمكنة والمركزية التي لها القوة والقدرة على التحكم والتسيير وله عدة تفرعات بحسب التخصص فمنه المركز السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ومنه السلطة والحكم ...

التفسير النفسي للأدب :

من الضروري أن نعرف سبب ميلنا للتفسير النفسي للأدب دون غيره في خضم المناهج الأدبية والنقدية فلا نجد أحسن من كلام يقوله الدكتور عز الدين اسماعيل في افتتاحية كتابه أن " العلاقة بين الأدب والنفس لا تحتاج إلى إثبات ؛ لأنه ليس هناك من ينكرها وكل ما قد تدعو الحاجة إليه هو بيان هذه العلاقة ذاتها وشرح عناصرها. على أي نحو يرتبط الأدب بالنفس ؟ أيستمد الأدب من النفس أم تستمد النفس من الأدب ؟ أم أن العلاقة بينهما علاقة تبادل من التأثير والتأثر ؟

إن النفس تصنع الأدب ، وكذلك يصنع الأدب النفس . النفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب . والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضفي جوانب النفس والنفس التي تتلقى الحياة لتصنع الأدب هي النفس التي تتلقى الأدب لتصنع الحياة . إنها دائرة لا يفترق طرفاها إلا لكي يلتقيا (د. عز الدين، صفحة 5) وهذا التفسير النفسي يعتمد على منهج له طوابطه وألياته.

المنهج النفسي هو واحدة من القراءات النقدية التي استهدفت قراءة النص الأدبي من خلال تحليل شخصيات الأدباء وتتبع آثارهم ومجريات حياتهم التي دونوها، واعتبار العمل الأدبي يعكس حياة الأديب أو الفنان هذا العمل الذي ينبع من الشعور أو اللاشعور على حد سواء

خصائص المنهج النفسي :

- يعرف شخصية الأديب من خلال شعره وما تتسم به نفسيته من ألم وحزن وفرح وغير ذلك
- تفسير الظواهر الفنية والجوانب الجمالية استنادا الى عوامل نفسية .
- تطبيق نتائج علم النفس على شخصيات الأدباء ونتائجهم الأدبي .
- البحث في أثر البيئة على شخصية الأديب عند التحليل . (زينب محمد نور و سارة تمكين شداد، 2018، صفحة 10)

لسنا هنا بصدد الحديث عن التحليل النفسي الاكينيكي ، ولا نعتبر الأديب مريضا نفسيا تلزمه المتابعة والعلاج ، وانما نتوخى الحديث عن الشعور واللاشعور - العقد - الخيال - الاحلام لدى الأديب لأنها مكونات طبيعية للنفس البشرية ، وتتجلى مخرجاتها في الأعمال الفنية ، النفس التي تأبى الانصياع والرضوخ للواقع المؤلم ، تحاول تجاوز العقبات من خلال مجموعة من الأليات أو الميكانيزمات كما اصطلح عليها علماء النفس .

أليات الدفاع النفسي :

أليات الدفاع النفسية التي درسها النفسانيون ، وأهمهم سيجموند فرويد ومن بعده ابنه أنا ، كثيرة ونلخص تعريفها في الميكانيزمات الدفاعية بأنها : مجموعة من الأساليب السلوكية التي تلجأ إليها الأنا؛ لكي تحصل على حاجة وجد ما يعيقها، أو تبعد عن نفسها خطرا واقعا، أو تتحاشى خطرا متوقعا، ومن الملاحظ أن هذه الميكانيزمات عامة، ومن الممكن أن توجد لدى الأسوياء، كما أنها تتصف بالشدّة والتطرف لدى المرضى، وترتبط باللاشعور ارتباطا قويا، ولكن بعضها شعوري. ومن أبرز الأليات : الكبت (Represion)، والإسقاط (Projection)، والإزاحة أو الإبدال (Displacement) والتعويض (Compensation)، والتقمص ... (Identification)، والإنكار (Denial)، والتسامي Sublimation والتبرير (Rationalization) (د. صهيبي خالد، 2017، الصفحات 8-9)

ولا نريد منها كما اسلفت سابقا دراسة السلوك للحكم عليه ومعالجته بل نبحث عن مجموعة من التفسيرات للأعمال الابداعية وفق اسقاطات نراها ملائمة للسلوك وقد نجانب الصواب لذلك هي مجرد اجتهادات .

سلطة القبيلة والانتماء:

كانت للقبيلة في المجتمع الجاهلي سلطة على أفرادها لا يمكنهم الفكك منها حتى ولو أخرجوا عنها كرها أو طواعية حتى وان صار يعيش خارج اراضيها وإن جارت عليه في أمر ما أدى إلى استبعاده عن قومه يبقى منتما في الغالب ومحباً لها ولا يزال يذكرها ويعلن ذلك في كل زمان ومكان . وهذا ما نلمسه في قول أحد الشعراء المخلوعين من قبيلته (قيس بن الحداية) مأخوذ بجريرة ارتكبها حيث يقول :

خزاعة قـومي فـإن أفتخـر	بهم عـزك ومعتصـري والنسـب
يواسـي لـذي المحـل مـولاهم	ويكشـف عـنهم غـموم الكـرب
	(أبو فرج الأصفهاني، الصفحات 2-4)

والشاعر هو أقدر شخص على التعبير فقد ذكر السيوطي أن القبيلة - في العصر الجاهلي - إذا نبغ فيها شاعر، أنت إليها القبائل، وهنأتها بذلك، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمازهر، كما يصنعن في الأعراس؛ لأنه الحامي لأعراضهم، وهو المدافع عن أحسابهم، وهو الذي يخلد مآثرهم، ولم يكن يعدل فرحة القبيلة بالشاعر سوى فرحتها بسلام يولد أو فرس تنتج" (السيوطي، الصفحات 2-473). فقد نشأ بين الشاعر وقبيلته ما يسمى "عقدا اجتماعيا وتحول إلى عقد فني جعله معبرا عن مشاعرها

وتطلعاتها قبل أن يكون معبرا عن مشاعره واتجاهاته الشخصية ، لذا اتجهت الأنا نحو النحن من خلال الفخر والاشادة بالقيم الجماعية التي تمثلها القبيلة فكانت الغاية قبلية وإن تكن الوسيلة فردية" (يوسف، الصفحات 147-175).

ويمكننا إذن أن نعرف الانتماء (Belounging) بأنه انتساب الفرد إلى جماعة معينة أو حزب معين أو ناد معين أو وزارة معينة أو مؤسسة عمل معينة . . بمعنى كونه عضوا فيها، أو واحدا منها له ما لأفرادها من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات . و واضح أن الانتماء يعنى بالمستوى الشكلي أكثر من الجوهرى التلقائي. يرتضي معاييرها ولا يتوحد بها ولا يشاركها ميولها واهتماماتها. (طه و وآخرون، صفحة 68) وعلى هذا يجري موضوع بحثنا حيث الشاعر ملزم بهذا العقد الاجتماعي والعقد الفني رغم كونه مهمش لا يعبا به ولكنه لا ينفك يقول :

وقلّة إنصافي على القرب والبعد
فلما تنهى مجدهم هدموا مجدي
(التبريزي، 1992)

أذكر قومي ظلمهم لي وبغيتهم
بنيت لهم بالسيف مجدا مشيدا

ورغم ما يحسه من ظلم إلا أنه يفخر بانتمائه لقومه في مواضع كثيرة يذكر أنه من عبس إليهم ينتهي نسبه وأصله وإن ظلموه وإن عيروه بأمة بأنها سوداء غرابية (نسبة للغراب للتشاؤم) يقول في ذلك :

من ال عبس منصبي وفعالي

وأنا المجرب في المواقف كلها

والأم من حمام فهم أخوالي
(التبريزي، 1992، صفحة 117)

منهم أبي شداد أكرم والد

المبحث الثاني : تطبيقي

ولد عنتر بن شداد في قبيلة عبس لأب من الأسياد الصرحاء معلومي النسب ، ولأم مملوكة أصلها حبشية سوداء اكتسب منها سواد لونه وانتقل إليه حكم العبودية كما جرت عليه عادة العرب الجاهليين ، وقد بينا سابقا سلطة القبيلة والالتزام الذي ينشأ بين أفرادها ، فكان واقع حياته ومجتمعه وتكوينه النفسي عوامل أدت إلى ظهور صراع نفسي لديه شأنه شأن كل شخصية سوية ، أضف إلى ذلك أنه لم يكن شخصية عادية فقد حباه الله بمجموعة من الصفات الخلقية والخلقية ما يؤهله لبلوغ مصاف الأشراف ونيل المجد والصراع النفسي أمر محتوم وهو في أبسط تعاريفه هو النزاع والتجاذب " الذي يدور رحاه بين جوانب النفس الثلاثة وهي الأنا والهو والأنا الأعلى. أو هو الصراع الذي ينشأ داخل النفس عندما يحذب جانباً منها أمراً معيناً بينما يرفضه جانب آخر، أو عندما تكون إمكانيات الفرد محدودة ولديه أكثر من دافع ملح في نفس الوقت الذي لا يستطيع فيه إلا أن يشبع واحدا فقط منها وهكذا.

و"الصراع داخل النفس شيء طبيعي وسوي، فكل منا يكابد هذا النوع من الصراع بدرجاته ومستوياته المختلفة ، شعورية ولاشعورية وكأن هذا الصراع من سنة الحياة . لكن الفشل في حله هو الذي قد ينتج عنه مرض نفسي.

بمعنى أن المرض النفسي ينتج عن فشل في حل الصراع داخل النفس البشرية ، لكن ليس كل صراع ولا كل فشل في حله ينتج بالضرورة مرضاً نفسياً". (طه و وآخرون، صفحة 250) ومنه سنرى أن عنتر ليس مصاباً بمرض نفسي بل قد كابد صراعاً بسبب مجموعة من العقد الناجمة عن ظروفه الاجتماعية .

ويمكن دراسة هذا الصراع من خلال محاور أربعة كانت الأشد بروزاً في شعره ، وهي العبودية والنسب المجهول و سواد اللون ثم الأعراف والتقاليد .

1- العبودية :

العبد مسلوب الحقوق ، مسلوب الإرادة لا يصلح إلا للعمل والخدمة ، لا يكون فارساً ولا شاعراً ، بل ينكر ذلك منه وعليه ، ولا يؤخذ بقوله، وإذا أثر عنه شعر أو نثر كان محل ازدراء وسخرية بل وتعجب كيف يقرض الشعر مملوك ؟

وعنتر فتح عينيه على هذا الواقع المرير ، وعند بلوغه عرف من أمه أنه ابن سيد من سادات عبس لا يعترف به ، وبدت عليه مخايل الفروسية والنبل مما خلق له عقدة نفسية جراء الصراع المتأجج بين واقع وبين ما يصبو إليه من خلال مؤهلاته الجسدية والأدبية خاصة بعد تفتق قريحته الشعرية ، وقد حاول إنهاء الصراع والركون إلى الهامش من خلال قوله : العبد لا يحسن الكر والفر بل يحسن الحلب والصر .. لكن هذا لم يمه صراعه إذ بنهاية الحرب التي أبلى فيها بلاء شديدا يعود الحال على ما كان عليه . فأصبح هذا الحال عقدة نقص لديه وعقدة النقص (Inferiority Complex) هي مشاعر وأحاسيس مركبة تلازم الفرد الذي يحس

نقصا عاما في شخصيته أو نقصا محدد في جانب أساسي من جوانبها أو مكون هام من مكوناتها، سواء كان جسديا أم عقليا أم نفسيا .

ولقد أقام أدلر مدرسته المسماة بعلم النفس الفردي .. على فكرة محورية خلاصتها أن الإنسان في نموه وفي كفاحه في الحياة إنما يستهدف أساسا تعويض إحساسه بالنقص ، بمعنى آخر التغلب على عقدة النقص حتى يحس القوة والسيطرة فيعوض بذلك قصوره " (طه و وآخرون، صفحة 293)

وكانت هذه العقدة عند عنتره شديدة وملزمة له ، تندفع من اللاشعور أحيانا ومن الشعور غالبا لديه فنجده يعبر عنها في مواضع كثيرة من شعره يقول :

أنا العبد الذي سعيدي وجدي	يفوق على السها في الارتفاع (التبريزي، 1992، صفحة 96)
أنا العبد الذي يلقي المنايا	غداة الروع لا يخشى المحاقا (التبريزي، 1992، صفحة 104)

لكنه من باب الإقناع العقلي لخصومه ومعانديه يقوم بمقابلة منطقية ، تدل على نباهة وبديهية قوية هذه المقابلة ينشئها عنتره في مجموعة من الأبيات المتشابهة ويقوم فقط بالاستبدال اللفظي ومن خلاله الاستبدال الدلالي ، لاحظ :

أنا العبد الذي خبرت عنه	وقد عاينتني فدع السماعا (التبريزي، 1992، صفحة 90)
أنا الرجل الذي خبرت عنه	وقد عاينت من خبري الفعالا (التبريزي، 1992، صفحة 112)
أنا البطل الذي خبرت عنه	وذكرني شاع في كل الأفاق (التبريزي، 1992، صفحة 109)

يقول عنتره ليس عيبا أن تكون عبدا لكن يجب أن تكون رجلا له أفعال كريمة وخصال مسموعة فيصير بذلك بطلا يشيع ذكره في كل الأفاق .

بل يمكنه ومع كونه عبدا أن يساوي ألف حر ويلقيهم في الحروب وينتصر عليهم	أنا العبد الذي خبرت عنه
يلقي في الكريهة ألف حر	(التبريزي، 1992، صفحة 86)

ويواصل عنتره نرجسيته الايجابية معوضا بذلك احساسه بالنقص في حريته وانسانيته ، فيشير الى أن عزة نفسه هي أساس بلوغ المراتب العلية

أنا العبد الذي بديار عيس	ربيت بعزة النفس الأبيسة
سلوا النعمان عني يوم جاءت	فوارس عصبة النار الحميسة
أقمت بصارمي سوق المنايا	ونلت بذابلي الرتب العلية (التبريزي، 1992، الصفحات 217-218)

ولا يكتفي عنتره عند حد الفخر بنفسه بل يدعو قومه للفخر بكونه واحدا منهم ، عبد اسمه عنتر

بني عيس سودوا في القبائل وافخروا	بعبد له فوق السماكين منبر
إذا ما منادي الحي نادى أجبته	وخيل المنايا بالجماجم تعثر
سل المشرفي الهندواني في يدي	يخبرك عني أنني أنا عنتر (التبريزي، 1992، الصفحات 79-80)

فكفاح عنتره في حياته استهدف تعويض احساسه بالنقص ، والتعويض من الآليات الدفاعية الطبيعية لدى الانسان و" هو حيلة من حيل التوافق تلجأ إليها الشخصية أو النفس البشرية أو الأنا بشكل شعوري أحياناً، وبشكل لا شعوري أحياناً أخرى، وأحياناً ثالثة تجمع بين الشكليات. وتلجأ الشخصية إلى هذه الحيلة حين تحس نقصاً في جانب فتريد تعويض هذا النقص والتغلب عليه بتقوية جانب آخر، " وهذا ما نجده جلياً في شعر عنتره فهو لا ينفك يذكر أنه عبد ويكررها كثيراً .

والتعويض الذي لجأ إليه الشاعر هو نوع من التعويض الزائد Overcompensation تعويض زائد لقد شاع استخدام هذا المفهوم في كتابات أدلر» واعتبره استجابة طبيعية لدى الأفراد نتيجة الوجود عقدة النقص لديهم، ذلك أن الشعور بالنقص يجعل الفرد مهتماً على الدوام، وأنه لا سبيل ل لتغلب على ذلك إلا بالتعويض ونشيد الكمال أو التفوق وكلمة استحکم الإحساس بالنقص لدى الفرد " (طه و وآخرون، صفحة 131) فعنتره صار ينشد الكمال بل يرى أنه بلغه والآخرين قصرُوا عن ذلك وهم دونه وهذا في قوله :

علوت ولم أجد في الجو ساعي
(التبريزي، 1992، صفحة 96)
على فلألك العلياء فوق الكواكب
(التبريزي، 1992، صفحة 37)
تخسر لعظم هيبة البيوت
(التبريزي، 1992، صفحة 38)

سموت إلى عنان المجد حتى
ويبني بحد السيف مجداً مشيدا
ولي بيت علا فلألك الثريا

ويقول بوضوح في هذه الأبيات عن طلبه المجد
فلأنتن بقيت لأصنعن
ما ساءني لوني واسم زبيبة
من كان يجحدني فقد برح الخفا
ولأحمين النفس عن شهواتها
ولأجهدن على اللقاء لأرى
فلأغضبن عواذلي وحواسدي
فهناك لا ألوي على من لا مني
مازلت مرتقيا إلى العلياء
حتى بلغت إلى ذرى الجوزاء
خوف الممات وفرقة الأحياء
ولأصبرن على قلبي وجواء
ما أرتجيه أو يحين قضائي
حتى أرى ذا ذمة ووفاء
ما كنت أكتمه عن الرقباء
إذ قصرت عن همتي أعدائي
عجائباً ولأبكمن بلاغة الفصحاء
(التبريزي، صفحة 22)

إن هذا الاسهاب في الفخر بالنفس هو كما قلنا من باب التعويض الزائد ، وهو ايجابي يعطي النفس الثقة اللازمة في مقابل ما تتعرض له من محاولة طمس وتقليل شأن يقول من خلاله المهمش في مجتمعه ، ها أنا أثبت نفسي بجدارة وليست عوامل التهميش إلا أوهاما في رؤوسكم .

2- النسب المجهول :

كانت العرب قديماً تعتد بأنسابها ومعرفة أباءها وقلما يظهر مجهول نسب في أحياءهم ، حتى إن البغي إذا حبلت سألوها : هو ابن من ؟ فنقول هو لفلان فكان من لا ينسب لأب يبقى وضيعاً يبعد عن مجالس الشرف ولا يقبل منه عدلاً ولا صرفاً ، وعنتره كان معدوداً في جملة العبيد ووجد نفسه أسير عقبات اجتماعية تجسدت خصوصاً في عدم اعتراف أبيه به حتى أثبت بطولة وشجاعة في الذود عن حمى قبيلته ثم أنه كان يعير بقلك نسبه عندما يفتخر السادة بنسبهم يقول في ذلك :

ومن قال : إنني سيد وابن سيد
فسيفي وهذا الرمح ، عمي وخاليا

ومن قال : إنني سيد وابن سيد

(التبريزي، 1992، صفحة 216)

ويقول ايضا قبل ان يعترف به أبوه :
 جـوادي نـسـبـتي ، وأبـي وأمـي
 حسـامـي ، والسـنـان إذا انتـسـبـنا
 (التبريزي، 1992، صفحة 195)
 أو أنـكـرت فرسـان عبـس نـسـبـتي
 فسـنـان رـمـحـي والحـسـام يـقـرـلـي
 وبـذابـلي ومهـنـدي نـلـت العـلـى
 لا بالـقـرابة والعـديـد الأـجـزـل
 (التبريزي، 1992)

إن إدراك عنصرة لأهمية النسب في حياة المجتمع القبلي العربي وشعوره الدائم بعقدة النقص في هذا الجانب دفعه للتعويض من خلال آلية التسامي عن هذه العقدة وذلك بتجاوزها على أنها ليست معيارا حقيقيا بل المعيار عنده بالانتساب الى المعالي والحرب ، الى السيف والرمح .

التسامي إحدى عمليات التوافق وأساليبه التي يلجأ إليها الأنا في حله للصراعات النفسية التي تقع فيها الشخصية وذلك بأن يقوم بتحويل طاقة دافع مدان من موضوع أصلي تريد أن توجه إليه إلى موضوع آخر بديل مقبول اجتماعيا. وهذه العملية تتم أساسا على مستوى لا شعوري . (طه و وآخرون، صفحة 116)

وكل هذا لم ينتج عنصرة من لزوم الوصم له ومن ظلم الأقربين خصوصا وأدى ظلمهم لمثل حادثة افتراء زوجة أبيه عليه زورا وتعرضه للضرب حتى أشفقت عليه يقول :

المـال مـالـكم والعـبـد عبـدكم
 كأنـهـا صـنـم يـعـتـنـاد مـعـكـوف
 تـجـالـتـنـي إد أهـوى العـصـا قـبـلـي
 فـهـل عـذابـك عـنـي الـيـوم مـصـرـوف
 (التبريزي، 1992، صفحة 99)

ولازمه الحزن بعدها والانتواء لفترة حتى أن قوما أغاروا على ديار عبس وسلبوهم أموالا ، وتغلبوا عليهم ، فأسرع شداد يستنهض عنصرة للذود عن اعراضهم وحياضهم ، فكان الجواب من العبد أن العبد لا يحسن الكر والفر بل يحسن الحلب والصر كما أسلفنا سابقا ، ونال على أثرها الاعتراف بأبوة شداد له فكان بعدها يقول مفاخرا :

وأنا المجرب في المواطن كلها
 من ال عبس منصبي وفعالي
 منهم أبي حقا، فهم لي والد
 والأم من حام فهم أحوالي
 (التبريزي، 1992، صفحة 117)

ويقول في نسب أمه
 يقدمه فتى من خير عبس
 أبوه ، وأمه من ال حام
 (التبريزي، 1992، صفحة 145)

بعد ثبوت النسب الى عبس من جهة الأب ، بقي عنصرة يعير بنسبه لأمه
 ينادونني في السلم يا بن زبيبة
 وعند صدام الخيل يا بن الاطايب
 (التبريزي، 1992)

وهو يعجب من قولهم ولم يزد ذلك إلا اصرارا على بلوغ المعالي والافتخار بأمه ونسبها لآل حام من بني نوح حيث تقول كثير من الروايات أن حام هو والد كثير من البشر ومنهم السود .

3- سواد البشرة :

الاختلاف في الشكل واللون مظهر من مظاهر التفرقة والعنصرية عند كل البشر، والسود على وجه الخصوص تعرضوا للاضطهاد والاستبعاد ، وكان السواد عند العرب وصما ونقصا ودافعا للاستبعاد والتهميش . وهذا راجع لعدة أسباب أهمها تشاؤمهم من هذا اللون لما فيه من إحياءات لليل المظلم والموت والغراب يقول ابو هلال العسكري " والورقة سود لا يخلطه بياض كدخان الرمث وهذا ألأم الألوان (الخطيب، 2018، صفحة 346)

فلم يكونوا يرون في الرجل الأسود أكثر من كونه رجلا دنيئا سيء الطبع وهي نظرة دونية عانى منها عنترة ، وشكلت عنده عقدة نفسية ، لكنه لم ينكر سواد أمه ولا استعز منه بل نجده يقول مادحا لها:

وأنا ابن سواداء الجبين كأنها	ضبع ترعرع في رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعامة	والشعر منها مثل حب الفلفل
والثغر من تحت اللثام كأنه	برق تلالاً في الظلام المسدل

(التبريزي، 1992، صفحة 134)

وأكثر أيضا من ذكر سواده في كثير من قصائده ولكنه إذا جاء به في شطر لا يطيل حتى يأتي بالمقابل الإيجابي ويظهر المعنى الخفي الذي يرى أنهم يغفلون عنه أو يتغافلون :

ومن قال إنني أسود ليعينني	أريه بفعلني أنه أكذب الناس
وان يعيبيوا سوادا قد كسيت به	فأندر يستره ثوب من الصدف
سواد يبياض حين تبدو شمانلي	وفعلي على الانساب يزهو ويفخر
شبيه الليل لوني ، غير أنني	بفعلني من بياض الصبح أسنا
جوادي نسبتي ، وأبي وأمي	حسامي ، والسنان إذا انتسبنا

(التبريزي، 1992، صفحة 195)

يقوم عنترة هنا بعملية التكوين العكسي و نقصد بالتكوين العكسي مبالغة الشخص في اظهار مشاعر و صفات و انفعالات و رغبات و دوافع مقبولة اجتماعيا لإخفاء ما لديه من انفعالات و رغبات غير مقبولة اجتماعيا فلو أنه غضب وقتل كل من غيره بسواد أمه وسواده لما أبقي على أحد في القبيلة ، بل لجأ لهذه الحيلة لإبراز عكس المواقف وإبراز الجوانب المضيئة الجيدة فيما يراه الآخرون سيئا مثل قوله:

فإن تك أمي غرابية	من أبناء حمام بها عبتني
فإنني لطيف ببيض الطبي	وسمر العوالي إذا جئتني

(التبريزي، 1992، صفحة 201)

ولكن كل ما كان يقوم به شاعرنا لم ينجح من تجني قومه ومواصلتهم في ازدرائه وتهميشه ، يقول :

وأرضى بالإهانة مع أناس	محلك لا يعادلـه محـلـ
وقد أمسوا يعيبيونني بأمي	ولوني كلما عقودوا وحلوا

ينادونني وخيل الموت تجري
أراعيهم ولو قتلي أحلوا
(التبريزي، 1992، صفحة 116)

فالحيل النفسية التي تلجأ إليها الشخصية العنترية ، تنفعها في ذاتها فتركها في حالة اتزان ورضى نفسي لا يزعه قول قائل ولا لحي لاح ، بل كان يزيد في إصراره ومضيه نحو العلا وطلب المجد
فقد ذكر صاحب الديوان أنه جلس يوما في مجلس من بعدما كان أبلى واعترف به أبوه و أعتقه ، فسأله رجل من بني عبس ، وذكر سواده وأمه وإخوته ، فسبه عنتره وفجر عليه ، بل ان الرجل ادعى أنه أشعر من عنتره فانبرى له الشاعر العبسي الفحل وكان هذا سبب كتابة معلقته الشهيرة المسماة بالمذهبة (التبريزي، 1992، صفحة 147)
وصم السواد يقض جنب عنتره ويدرك أنه من بين الاسباب التي تجعله هامشيا في قومه ، لا يهنا بالالتحاق بمركز القبيلة حتى بعد اعتراف أبيه به ، فاللاشعور عنده لم يتخلص من هذه العقدة فالأنا دائم الصراع مع الهو والاحتكام عنده دائما الى الهو الأعلى وهو المبادئ والقيم والأخلاق الحميدة ومعاني الجمال في السواد كالليل بنجومه وكالقمر الذي لا يظهر جماله إلا لليل والمسك أسود في لونه عطر في رائحته.

4- مخالفة الأعراف :

عرف المجتمع العربي بالغيرة الشديدة على المحارم والمحافظة على العفاف وصون المرأة عن كل ما يندسها ، بل إن الحرة لم تكن تعرف بالزنا الذي يشيع بين الإماء وذلك ما دعا هند بنت عتبة عند مبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم أن تستغرب وتقول باستفهام استنكاري : أو تزني الحرة ؟ والغزل و التشبيب بالنساء كان كذلك من المحرمات وخاصة يتجنب الشاعر ذكر اسم المحبوبة أو ذكر اسم قبيلتها أو اسم أبيها و من وقع في هذا المحذور ربما قتل بذلك وأقل عقوبة قد تقع عليه هي الطرد ليصبح خليعا أو حرمانه من الزواج بمن تشبب بها .

وعنتره عرف بحبه لأبنة عمه عبلة يقول مصرحا بذلك :

إذا كان دمعي شاهدي كيف أجحد	ونار اشتياقي في الحشا تتوقد
وهيهات يخفى ما أكن من الهوى	وثوب سقامي كل يوم يجدد
أقاتل أشواقى بصبري تجلدا	وقلبي في قيد الغرام مقيد
إلى الله أشكو جور قومي وظلمهم	إذا لم أجد خلا على البعد يعضد
خليلي أمسى حب عبلة قاتلي	وبأسى شديد والحسام مهند

(التبريزي، 1992، صفحة 54)

لكن لم يؤثر على وجه التحقيق أن عبلة بادلتها الحب ، بل أنه يصرح في كثير من قصائده بشعوره بالتهميش من طرفها وللأسباب نفسها التي أتينا على ذكرها ، وخاصة سواد لونه .

لا تضحكي مني عبيلة ، واعجبي

خلق القميص وساعدي مخدوش

منني إذا التفقت علي جيوش

(التبريزي، 1992، صفحة 89)

ضحكت عبيلة إذ رأته عاري

ويخاطبها في موضع اخر مفتخرا بنفسه ومتحديا بأنها لن تجد مثيلا له :

ولا يلحقك عار من سواي

وإن أبصرت مثلي فهاجريني

(التبريزي، 1992، صفحة 65)

ويقول أيضا :

فـعـجـبـتـ مـنـهـا كـيـف زلـت عـيـنـهـا لا خـيـر فـيـك كـأنـهـا لـم تـحـفـل
فـتـضـا حـكـت عـجـبـا ، و قـالـت قـولـة عـن مـا جـد طـلـق الـيـدـيـن شـمـر دـل
(التبريزي، 1992، صفحة 120)

ففي الأبيات السابقة دليل على نوع من الازدراء من قبل محبوبته عبله ، فينبري المحب الولهان إلى السعي للتعويض عما فاتته من حبها بالافتخار بشجاعته واستبساله في الحروب حتى يرضيها ، بل ومن عجب ما يفهم من شعره أنها غير راضية عنه لسواده !
دعني أجد إلى العلياء في الطلب وأبلغ الغاية القصوى من الرتب
لعل عبله تضحي وهي راضية على سوادي وتمحو صورة الغضب
إذا رأته سائر السادات سائرة تزور شعري بركن البيت في رجب
يا عبل قومي انظري فعلي ولا تسلي عني الحسود الذي ينيبك بالكذب
(التبريزي، 1992، صفحة 36)

ثم تمر بعنترة فترات أقرب ما تكون إلى اليأس من نيل مبتغاه فيبث ذاك في اشعار:

حسـنـاتـي عـنـد الزـمـان ذنـوب و فـعـالـي مـذمـة و عـيـوب
ونـصـيبي مـن الحـيـب بـعـاد ولـغـيـري الـدـنـو مـنـه نـصـيب
كـل يـوم يـيـري السـقـام مـحـب مـن حـيـب و مـا لـسـقـمـي طـيـب
فـكـأن الزـمـان يـهـوى حـيـبـا و كـأنـي عـلـى الزـمـان رـقـيـب
(التبريزي، 1992، صفحة 27)

و كما اسلفنا صاحب الشخصية القوية السوية يخالجه الخيال والأحلام لتسليه نفسه والترويح عنها وهو أن "الخيال يخفف عن الانسان الكثير من الضغوط الواقعة عليه , و من الممكن أن يصوغ الانسان العديم السيناريوهات في عقله و بها يجد العديد من الحلول , اذا ما استخدمها استخداما أمثل في الوصول إلى نتائج تحقق الراحة النفسية , و لكن تصبح حالة مرضية باستمرارها و تحويل الواقع الى أحلام يقظة و تخيلات , فلذلك لابد و ان تخضع الى ضوابط و محددات لعملها , لاسيما ان مكون اساسي في حياة الانسان طفلا كان او راشدا , سليما كان او مريضا , مستيقظا كان او حالما اثناء نومه , فالتخيل او الخيال هو الرجوع الى عالم الخيال لتحقيق ما عجز عن تحقيقه في الواقع (المركز الجامعي بالحاج بوشعيب، 2016/2017)
يقول في ذلك :

إن طـيـف الخـيـال يـا عـبـل يـشـفـي و يـدـاؤـى بـه فـؤـادـي الكـئـيـب
(التبريزي، 1992، صفحة 20)

ويقول ايضا :

أشـاقـك مـن عـبـل الخـيـال المـبـهـج فـقـلـبـك مـنـه لـا عـجـ يـتـوـهـج
فـقـدـت الـتـي بانـت فـبـت مـعـذـبا و تـلـك اـحـتـواها عـنـك لـلـبـيـن هـودـج

(التبريزي، 1992، صفحة 40)

إن ورود النداء في أشعار عنتره لمحبوته عبله بشكل مبالغ فيه فلا تكاد تخلو قصيدة من ذكرها بأسماء عديدة : عبله وعيبل وبننت مالك وبننت العبسي... ومحاولته لفت انتباهها لبطولاته نوع من اظهار النرجسية الايجابية ونوع من التعويض النفسي في الاستبسال والشجاعة في الحروب، ثم توثيقها والافتخار بها وحق له ذلك .
بل إنني أزعج أن لولا حب عنتره لعبله لكان تخلص من صراعه وحسمه إلى صالح الانضمام الى المهمشين وتمرد عن وضعه قولاً وفعلاً وخرج كما فعل الصعاليك المعروفون ودليل ذلك قوله:

ولولا حب عبله في فؤادي	مقيم مار عيت لهم جمالا
خدمت أناسا واتخذت أقارباً	لعوني ولكن أصابحوا كالعقارب
ينادونني في السلم يا بن زبيبة	وعند صدام الخيل يا بن الاطايب
ولولا الهوى ما ذل مثلي لمثلهم	ولا خضعت أسد الفلا للثعالب (التبريزي، 1992، صفحة 35)

ويقول في موضع آخر

ومن يكن عبدا قوم لا يخالفهم	إذا جفوه ويسترضي إذا عتبوا
قد كنت فيم مضى أرعى جمالهم	واليوم أحمى حماهم كلما نكبوا

واضح جدا من أشعار عنتره تحمله وصبره على الظلم والتعير له بما ليس له فيه يد في قبيلته منذ نعومة أظفاره إلا لأسباب قوية وأهمها تعلقه الشديد بعبله إلى حد العشق ، تحمل الرعي والعمل الشاق ، وقاتل في كثير من المعارك ليسترد ما يسلب من قومهما كرامة وحبا لها ، وفي احدى قصائده يشكو المصائب والاهوال التي لاقت به بأرض العراق محاولا جلب المهر المقترض من عمه مالك ، ثم يخذل ولا ينال مراده فيتعلل بالحلم والتمني .

الخاتمة

عنتره العبسي شاعر فحل وفارس مغوار لا يشق له غبار قد اجتمعت فيه كل الخصال الحميدة من خلق وخلق وفي المقابل اجتمعت عليه عوامل سلبية لا يد له هو فيها وهي العبودية والسواد والحب الميؤوس منه وأثرت في نفسه ، وخلق له صراعا عنيفا ، فلا هو عبد أسود من عامة العبيد ، يرضى بذلك ويبقى على هامش مجتمعه ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، ولا هو نال المكانة التي يستحقها بجدارة واقتدار ، وقد أسهب في ذكر هذه المنغصات في شعره ، مما يدل على وجود هذه المنغصات على شكل عقد نفسية لا تبارحه وتقض مضجعه ، لكن شخصيته القوية لم تستسلم للأمراض النفسية والوهن بل قد اندفع بمجموعة من الآليات الشعورية واللاشعورية ينظم دررا بين فيها قدرته الفنية واقتداره على أخذ مكانته بجدارة وبكل حزم وبكل قوة بيان وفصاحة لسان ومنطق حكيم :

أنني امرؤ من خير عبس منصبا	شطري وأحمي سائري بالمنصل
إن يلحقوا أكرر وإن يسلموا	أشدد وإن يلفوا بضنك أنزل

إن كنت في عدد العبيد فهمتي	فوق الثريا والسماك الأعزل
وأنكرت فرسان عبس نسبتي	فسنان رمحي والحسام يقر لي
وبذابي ومهندي نلت العلى	لا بالقربانة والعديد الأجزل
الساق منها مثل ساق نعامة	ضبع ترعرع في رسوم المنزل
وأنا ابن سوداء الجبين كأنها	والشعر منها مثل حب الفلفل
والثغر من تحت اللثام كأنه	برق تلالاً في الظلام المسدل

(التبريزي، 1992، صفحة 134)

وفي هذه الابيات اجمل فيها عنبرة كل السلبيات في حياته وقابلها بالإيجابيات عنده فهو في توازن يجعله يتغلب على الصراع الذي يعيشه وكان له من قوة العزيمة ورباطة الجأش ثم الشجاعة والقوة في الحروب وفي قرض الشعر، ثم تحليله بكريم الخلق ما جعله يتغلب على هذه العوامل ويضع لنفسه مكانة بين قومه وفي تاريخ العرب .

قائمة المراجع والمصادر :

- أبو فرج الأصفهاني. (بلا تاريخ). الأغاني. القاهرة: مطبعة التقدم.
- اسماعيل د. عز الدين. (بلا تاريخ). التفسير النفسي للأدب. القاهرة، مصر: مكتبة غريب.
- الخطيب التبريزي. (1992). شرح ديوان عنتر. بيروت: دار الكتاب العربي.
- الفيروز ابادي. (بلا تاريخ). القاموس المحيط (المجلد 2). (مجدي فتحي السيد، المحرر) القاهرة، مصر: المكتبة التوفيقية.
- المركز الجامعي بالحاج بوشعيب. (2016/2017). محاضرة بعنوان الميكانيزمات الدفاعية. عين تموشنت، الجزائر.
- خليف يوسف. (بلا تاريخ). دراسات في الشعر الجاهلي. القاهرة: مكتبة غريب.
- د. شروق عبد المجيد سلمان الخطيب. (نيسان، 2018). عقدة اللون عند الأغربة في الشعر العربي قبل الاسلام . دراسات تربوية، الصفحات 343-344.
- د. فرج عبدالقادر طه، و اخرون. (بلا تاريخ). معجم علم النفس والتحليل النفسي. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- زينب محمد نور، و سارة تمكين شداد. (2018). المنهج النفسي في النقد الأدبي. 10. وزارة التعليم العالي -جامعة القادسية -كلية الاداب.
- عبدالرحمن جلال الدين السيوطي. (بلا تاريخ). المزهرة في علوم اللغة (المجلد ج2). (محمد أبو الفضل ابراهيم، المحرر) بيروت: دار الفكر.
- مجد الدين الفيروز أبادي، و فتحي السيد ت. مجدي. (ب.ب). القاموس المحيط. القاهرة، مصر: المكتبة التوفيقية.
- واخرون د. صهيبي خالد. (يناير، 2017). ميكانيزمات الدفاع المستخدمة لدى المتأخرين دراسيا من طلبة المرحلة الثانوية. العلوم التربوية، ج 1.